

صور وصفية لشخصيات لامعة

عبد العزيز فهمي

كان شأني مع عبد العزيز فهمي هو شأن كل امرئ مع الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس، وتتجلى صورهم في الصحف مختلفة الأوضاع. فان تاح لك أن تراهم لمحتهم عبراً في سيارة، أو خطفاً في مجتمع. وإن صورهم التي تتمثل في الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نسج الخيال...

ظلت علاقتي بعبد العزيز فهمي لا تتجاوز هذا المدى... أعلم أنه أحد ثلاثة، كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصب...

وتتناهى إلى تلك الأحاديث النادرة التي تصف مواقفه الرائعة الجبارة في السياسة والتشريع والقضاء...

وأول مرة اجتليت فيها صورة الرجل عن كتب، كانت بدار المجمع اللغوي في زيارة لتلك الدار...

لمحتني على أريكة يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة، متراخي الأوصال، قليلا على الأريكة شخصه الضئيل...

فاسترعى انتباهي منه طول إطراره، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق! فنانجيت نفسي:

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية لكتابة العربية، ذلك المشروع الذي انبعث من المجمع قذيفة احتاج لها رجال الفكر في أرجاء الأمة العربية، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث؟...

ووقعت في يدي نسخة من ذلك الكتاب الذي ترجمه عبد العزيز فهمي

منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدونة جوستنيان في الفقه الروماني » . . . مجلد ضخّم زاخر بخلاصة التشريع في ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز في دقة التعبير ، وإحكام الأداء ، تتجلى في ديباجة عربية بليغة عليها رونق ورواء . . . ونمى إلى أنه احتبس في داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره في الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ بما أراد في الشهر الذي أكل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوج تلك السن المباركة بذلك الجهد العلمي الرفيع ! كنت أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فترف حوالى صورة ذلك الرجل الذي لحته منكمشاً على الأريكة في دار الجمع ، غارقاً في تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندي من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطبقها إلا الأقلون الأندرون . . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور
شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى في الريف بعض يوم ، فجزت في طريقى بكفر المصيحة ، بلد عبد العزيز فهمي . . . فالفيتى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً في بيت عبد العزيز فهمي الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذي هو بقية من دور الأسر العريقة في الريف ، تلك الدور التي كانت مثابة الآباء والأبناء والحفدة ، كل دار منها كأنما هي وطن يحوى أمة ! ولبثت أسمع أحاديث الناس ، فإذا هي ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهلها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزراع من أهل منطقته ، يأخذ بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجهيزها بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمنازل والمؤسسات ، حتى لقد أضحت « هليوبوليس » الريف ، وأصبح هو « بارون ألبان كفر المصيحة ! »

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل في سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فلون الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التي نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

في هذه القرية المتروية بين حواضر الأقاليم ، مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، فلا بدع أن يقص علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هي أن الفلاحات يخرجن في الأصائل إلى النيل ، حاملات جرارهن يستقين ، فإذا ما صدرن عن الماء آيات إلى الدور ، وقفن في منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهل عليهن برزمته ، تحاطفن منه الصحف في حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أملن على رؤوسهن الجرار ، ومضين يروين ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد !

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى عبد العزيز فهمي جلسة تحية وتعارف . فلما قفلت إلى القاهرة لم يهدأ لى بال حتى رغبت إلى صديق في أن يضرب لى معه موعد لقاء .

وفى منتصف الثامنة من أمسية يوم ، كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى ترف القصور . . . وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولشت واقفاً أجبل الطرف حولى ، وقد شملتني رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة ما يحيط بى من مظاهر . طابع شرقى محافظ ، مشبع بجو عائلى تشيع فيه البطمانية والهدوء . . . فرحت أهجس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة . . . وإن حيطانه الصوامت لتخترن أصداء ذلك اللفيف من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسماً لأقدار مصر الحديثة فى نهوضها السياسى والاجتماعى والعلمى . هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجثو من روعة التذكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح ! لم تكد تمضى بضع لحظات ، حتى أرتقينا الدرج إلى عرش الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حجرية خشبية نصفها الأعلى نوافذ تسدل عليها الأستار ، وكان الزعيم جالساً فى ركن خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يديه منضدة بسطت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبسة التفضل : منامة صيفية ، وقلنسوة بيضاء تترامى على مؤخر رأسه . . . وكان لقاءه لقاء السمع الأريحى فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلست إليه دقائق ، مستغرقاً في صمتي ، شاخصاً ببصري ، لا أريم وجه ذلك الرجل الذي تتضوأ شيخوخته أنيسة محبة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تندفق من بين شفثيه في عذوبة وصفاء . . .

وراعني أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس . خنى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجم ، فخشيت أن أكون قد لقيته في وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقي النظر أسائله ، فطمأنني بأن زعيمنا قد ألف هذه المجاهدة ، فليس عليه من خير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة ، وكشفت علبة اللقائق ، وما هي إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض ، وجرى الحديث طلقاً زاخراً لا لغوفيه ولا فضول . فلبثت أستمسك بالأصغاء ، مؤثراً ذلك السكوت الذهبي الذي يتيح لي أن أودع سمعي غوالي الحديث . . .

حديث عبد العزيز فهمي صورة واضحة من شخصيته : خلاصة في المنطق ، ونصاعة في العرض ، وصدق في اللهجة . . .

إن الكلمات لتندفع على شفثيه مشبوبة الحيوية تنهوج ، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وفورة دمه ، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الايمان ، ونقاء الطوية ، وصراحة الرأي . . .

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث ، لكي يستبين لك جماع الخصائص النادرة التي عرف بها في حياته العامة . . . للرجل افتنان في الحديث يتيح له أن يجوز بك آفاقاً رحاباً في عالم الفكر ، وله عون أي عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة ، وذكاء عبقرى لا ترده حدود ، ونزعة إلى الاطلاع تعب ولا تروى !

وإنه ليحاورك ، ويطارك القول ، دون أن يفرض عليك وجهة نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه ، والاعتناع به ، قوى العارضة ، طبع البديهة ، مسكت الجواب !

كان الباشا يستريح بين الفينة والفينة ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتلمس من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس . . . ثم إذا هو يستأنف الحديث أندى صوتاً ، وأقدر على مواصلة الكلام . . .

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لحت سمها حتى عرفت أنها قهرمانه

البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة . . . دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جده بتحية المساء ، فما إن رأى الطفل جده حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجد يبادلها التحية والعناق . . . وكانت التحياتان كلتاهما تتشابهان وتنسجان في الوداعة والسذاجة واللطف ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر لا يدرى أيتهما تحية الجد وأيتهما تحية الحفيد !

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هي إلا أن رجعت حمل قدحاً في قرارته جرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم في طوع واستسلام . . .

وكنا بين حين وحين نسمع الباشا ينادى تلك السيدة ، راغباً إليها في إحضار كتاب ، أو علبة لغائف ، أو كوب ماء ، أو غير ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء رزينة السميت ، موفورة الذمط ، تزاوّل عملها في جد وإقبال ، تعدو وتروح في خفة بنت العشرين ، وإن كانت بادنة تقدمت بها السنون !

إذا دخلت الحجرة دبت بخطا مترنة ، عليها طابع السيادة والتأمر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعيم ، وتسهر على راحته ، لا ينازعها في مهمتها منازع . . .

وقد نرى الباشا منبرياً يتحدث عن قصص القرآن ، وما له في شأنه من رأى ، فاذا برغبة تهجس في نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت منادياً تلك القهرمانة ، حتى تبصر بها أماناً كأنما انشقت الأرض عنها . . . إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطلب في أسرع من رجع الطرف وخطف البرق !

حان وقت العشاء ، جئنا لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة ، زودت بمعدات الأكل وصحاف الطعام ، فأذكرتني هذه الطريقة أسلوب الاطعام الأمريكي في الطائرات والمطاعم المسماة في أمريكا « كافيتريا » . . .

وهالني ما حفلت به صينيّتي وصينية صديقي من أطعمة شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عيني إلى صينية الباشا فاذا أوضح ما فيها قارورة ملئت حساء مجمداً يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب في قليل من الماء الساخن . . . وبجانب القارورة صحيفة عليها شرائح رقيقة من شواء ، وخلفها صحيفة فيها قطع من الطماطم ، وغير بعيد صحيفة تالفة فيها شقة ضئيلة من فاكهة الشام . . .

والتفت إلى الصديق أسأله فيما أرى ، فأخبرني بأنه لا يعرف أن الباشا زاد في طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما أسباب اللقاء . . . وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، تومئ إليهم فيأتمرون . وتشير فينتهون . . . وما لبثت أن تولتنا بالرعاية والتعهد ، تلج علينا في أن نأكل من هذه الصفحة أو من تلك ، وكأنها بذلك تسلكنا في عداد أطفالها المدللين . . . لزام أن نملاء البطون ، لنكبر ونتزعرع ، ونكسب رضاها الثمين ! . . .

ويا طالما وقفت تجاه الباشا تأبى عليه أن يتكلم ، وتحشه على أن يستوفى حظه من الطعام غير منقوص . فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها نصره في صمت هادئ ، وعلى محياه طابع الحمل الوديع ! وفرغنا من الطعام ، وحملت الصواني ، فعادت منضدة الباشا إلى وضعها الأول : كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب . . . ولاحظت أن الباشا يعنى بهذه الكومات ، وكثيراً مامد إليها يده ، يخشى أن يند منها شيء . . . فنظرت إلى الصديق ، فإذا الباشا يقطن إلى مدار في خاطري من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة ، يزهديني فيها حوت أكبر تزهد ، ويهون من شأنها أكبر تهوين !

ولكنه في ثنايا حديثه ، أشار إلى أنه ينهى أن يمس أحد منها ورقة أو يكشف عن مكنون مهما يكن من أمر ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . . فأدركت أن الباشا يتخذ الصحف دريئة تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندي أغصان الأشجار وألوان الرمال في مناطق القتال ، تغطية لما يرغب في ستره عن العيون !

سطح هذه المنضدة طبقات ، في كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد ، تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية ، وذكريات عزيزة ، وتعليقات في علم وأدب وسياسة وتشريع . وكان كل طبقة من هذه الطبقات حبة من التاريخ وكرة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث . . .

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون من عتاب وحساب ! عاد الباشا إلى حديثه الطلى ، حتى مر هزيع من الليل لم نكد نصدق

أنه مر . ولولا أني آثرت راحة زعيمنا العظيم ، لما صدرت عن ذلك المجلس الذي أصبت فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح !
وقفت خاشعاً أمام مضيفنا الكريم ، آخذ بيده أحبيه . . . أحيي قوة شعت أضواؤها ، فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطني أتى مصر أبرك الثمرات . . .

في تلك اللحظة انتظمتني تلك النشوة العلوية التي يستشعرها المرء في مواقف الأكابر والتمجيد . . . وخرجت راضياً عن نفسي كل الرضا بما كسبته هذه الزورة من التسامى فترة في أفق مثالي خالص من شوائب الأغراض التافهة وشواغل الحياة الرخيصة مما يزحم دنيا الناس !

غادرت تلك الدار ، وقد طوفت برأسى خواطر : ذلكم زعيمنا العظيم يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحجيصة الزجاجة ذات الأستار ، يقضي شيخوخته النبيلة في حشد من ذكرياته المعطرة بالماثر والأبجاء . . .

لم تمتد عين عبد العزيز فهمي إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عف قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة ، وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خداع مصيره للزوال . . .

أعجب ما يروعك من خصائص عبد العزيز فهمي ظمؤه الدائب إلى العمل ؛ فانه ليقضى أطول يومه في تلك الحجيصة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه موكل بالهوامش البيض في الكتب ينمنها بما يجري به قلمه من ملاحظة وتعليق . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، وما برحت أفداح القهوة توافيه ، وعلب اللقائف تغدو ملائى وتروح خالية ، والخدم يتناوبون خدمة ذلك المهجد اليقظان !

حياة عبد العزيز فهمي سلسلة من المغامرات في سبيل العمل ؛ فهو لا يحل مثابة ولا يشترك في شئ إلا كان العمل رائده فيه ، فاذا هو يثير حوله فورة النشاط والدعوى . هيات أن يكون سلبيا في موقفه ، مكتفياً بملء كرسيه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى في أدائها حيثما حل ، مقتحماً في سبيلها أشتات العوائق والأشراك . . .

يجلس عضواً في لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .
ويتسئم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة يتمثل
فيه استقلال الرأى وعبقريّة الذهن ، ويصبح شغلا شاعلا لمعاهد الفقه
والتشريع . . .

ويدعى إلى الجمع اللغوى فاذا هو السباق إلى ارتياد آفاق جديدة تحدوه
إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

عبد العزيز فهمي في شيخوخته العالية فقىّ العقل ، طلاع دائماً إلى
التجديد ، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة ، لا يتهيب مواقف
الاقتحام !

لا خلاف على أن عبد العزيز فهمي زعيم ، فان زعامته ملء القلوب ،
والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .
وكان محالاً أن يكون الرجل زعيماً من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى
فيه الزعامة قيادة الجاهير ، وتلف حولها أشتات الطبقات ، وتحرص على اجتذاب
الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ
بنواصيرهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس عبد العزيز فهمي ذلك الزعيم الشعبى ؛ فان الزعماء الشعبيين
يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، ومبالأة
الأحداث ، وتحسس الأهواء ، والتردد بين الدين والعنف طوعاً لطوارى
الجزر والماء . . . وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفاً في مثاليته ،
صلباً في عقيدته ، متفرداً برأيه ، متحنشاً فيما يتخذ من وسائل لبلوغ
الأهداف . . .

وعبد العزيز فهمي مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنث ،
تلك الخصائص التى تجعله زعيماً من ذلك الطراز الخاص الذى يورى الزناد ،
وينفخ فى الروح ، ويبعث اليقظة ، ويخطط الطريق ، ثم يدع لغيره من الزعماء
أن يخوضوا وسائل التنفيذ ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجارب !
هو صاحب « فكرة » يطرحها على أعين الناس ، وليس عليه بعد
ذلك أن يناقس فى تحقيقها ، وأن يحتمل ما يقتضيه ذلك التحقيق من أعباء
دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحنثون !

